Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سافرت الباخرة ، مرت سبع سنوات ـ والرقم سبعة يذكرنا برحلات السندباد السبع ـ ليعود الشاب الأنيق إسماعيل طبيب العيون متفوقا بعد أن داعبه أستاذه ـ فى انجلترا ـ قائلا : أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمصت فيك يا مستر إسماعيل ، إن بلادك فى حاجة إليك ، وهى « بلد العميان » .

وفى الفجر ، عند وصول الباخرة ، قفز إسماعيل إلى سلم الباخرة لكيون الفجر رمزا لعهد جديد فى عالم متغير فى حياة إسماعيل ، إن مظاهر التغير تسللت إلى نفس إسماعيل وعقله ، كانت « مارى » زميلته فى الدراسة حين يقول لها تعالى نجلس ، تجيب : قم نسر ، يحدثها عن المستقبل فتحدثه عن الحاضر ، رمزان متضادان بطبيعة الحال .

كانت تحدثه عمن يلجأ إلى المشجب وهو أسير معطفه ، وتحدثه عن القبور ، وحين تراه ينظر إلى الضعفاء تقول له : لست المسيح بن مريم ، ومن طلب أخلاق الملائكة غلبته أخلاق البهائم .

إن العالم المتغير يبدأ أمام ناظرى إسماعيل فى أوروبا قبل حى السيدة زينب بالقاهرة ، لقد انتابته أزمة روحية جعلت روحه خرابا ، وهو بعد طالب بباريس ، فانقطع عن الدراسة ، وأنقذته مارى فى رحلة إلى الريف باسكتلانده بعيدا عن ماديات المدن الكبرى .

وهو فى القاهرة ـ بعد عودته ـ ينظر لفاطمة النبوية ، وزيت قنديل أم هاشم ، والشيخ دردير ، ويرى احتجاح أمه على آرائه ، كذلك فزع أبيه ، فكل شىء جائز إلا بركة زيت قنديل أم هاشم ، ثم بلغ التغير منتهاه فدخل الجامع ، وأهوى بعصاه على قنديل أم هاشم فحطمه ، وصرخ : « أنا . . . » ـ ومن العجيب أن يعلق يحيى حقى على هذه الجملة أنه ظل أسبوعا يبحث عن بديل لهذه الجملة فلا يجد إلا ما قاله نيتشه حين جن : أنا . . أنا . . أنا . هكذا بلغ التغير بإسماعيل مبلغه ، فخر مغشيا عليه .

وبدأ يعالج فاطمة دون الاستعانة بزيت القنديل ، فكر فى العودة إلى أوروبا مرة ثانية ، ثم ذهب إلى الجامع فى ليلة القدر ، وعاد بعلم يسنده الإيمان وافتتح عيادة للفقراء ، وحقق حلم أبيه وأمه وتزوج فاطمة وأنجب منها .

هكذا حصل التوازن بين المادة والروح ، وهكذا توازن الاغتراب مع الاستقرار الروحى تماما كما استقر محسن فى عصفور من الشرق .